خواطر فى كتاب الله

آداب السلوك

للأستاذ محمد عبد الله السمان

إن للمجتمع تقاليده ، وللسلوك آدابه ، ولهذه التقاليد والآداب احترامها وإجلالها ، ولا يحاول الشذوذ عنها إلا أولئك الذين نكبوا بقصور فى عقولهم ، وسقم فى أبابهم ، وعثو فى تفكيرهم

وتربية القرآن النفس على مراعاة تقاليد المجتمع وآداب السلوك فيه تقدير وإكبار له — ولا جدال فى أن العجب لآخذ منك مأخذه حين ترى القرآن لم يهمل هذه الآداب دون أن يغادر منها صغيرة ولا كبيرة ، محاولا صقل النفس بالذوق السليم وطبعها بالطابع المحمود

فالجالسون يجب عليهم أن يتفسحوا فى المجالس ليجلس القادمون ، وينهضوا وقوفا إذا لم يكن هناك أماكن لجلوسهم ، لأن الذوق السليم والمروءة تقتضيان هذا وتحتمانه عليهم :

« يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ، وإذا قيل انشزوا فانشزوا ، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ... »

والزائرون يجب عليهم الاستئذان قبل الدخول ، والتسليم إذا أذن لهم — كما يجب عليهم المبادرة بالرجوع من حيث أتوا إذا لم يجدوا أحدا ، أو وجدوا ولكن لم يؤذن لهم ، وذلك أصون لكرامتهم وشعورهم ، وأكرم لشرفهم ومروءتهم :

« يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون — فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم »

والخدم والأطفال يجب أن يكون لاختلاطهم بالنساء والفتيات حد داخل البيوت ، وإن كانت المصلحة تقتضيه ، فأوقات النهوض من الفراش ، والإواء إليه أوقات دقيقة قد تكون كل من المرأة والفتاة فيها بحالة لا يحسن رؤيتها عليها :

« يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم »

ويعيب القرآن سلوك الذين يتهاونون فى مروءتهم ، ويتحايلون فى أن يدعوا إلى الوائد ، فتراهم يتربصون بالأطعمة ، فإذا ما تم نضجها تعللوا بالزيارة وغيرها ، وأسهموا فى تناولها . وليتهم يقفون عند هذا الحد ؛ ولكنهم يأبون إلا أن يقاسموا أهل البيت أرقاتهم مستبدين بها ، غير مبالين بأن فى هذا إيذاء لهم وإهانة لأنفسهم :

« يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ؛ ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث . إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم ، والله لا يستحى من الحق .. »

وليس من أدب السلوك ولا من حسن التصرف أن يأتى الإنسان البيت من ظهره ، فإن فى هذا قلباً للأوضاع ولا أن ينادى أهل المنزل من وراء الحجرات ، فإن فيه إحراجا لشعورهم واستخفافاً بأقدارهم : « وأتوا البيوت من أبوابها — إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم . »

ومن الفظاظة التى يعجها الذوق السليم أن لا يحترم المرء من يكبره مقاماً أو سنا أو علماً ، فيرفع صوته فوق صوته ، ويناديه مناداة فيها كثير من التهاون ، كما ينادى إنسانا عاديا :

« يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم

(١) مواصلة البحث التى نعد قراءها على صفحات الرسالة الغراء إلى نهاية العدد ٥٠٩ من السنة الثانية عشرة

لاتشعرون ، إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ؛ لهم مغفرة وأجر عظيم — لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا . »

ومن الفوضى أن يتهاون الإنسان فى آداب الاجتماعات ، ومن أهم آداب الاجتماعات الاستئذان من الرئيس ، والشذوذ عن الإجماع ، وانتهاز غفلة الرئيس للهرب من القاعة متسللا ، ولاسيما فى الاجتماعات المهمة التى تتعلق بشؤون الأمة وحياتها :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم — قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم »

وللحديث آداب يجب أن تقدر ، والاستهانة بها مما يجعل المتهين مهيناً فى نظر الناس . وليس من آدابه فى شئ أن يأخذ بعض الجالسين جانبا من المجلس ، فيتحدثوا سرا بما شاءوا أن يتحدثوا ، فتدب الفوضى فى الحديث ، كما يدب القلق فى نفوس الكثير :

« إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا ، وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون »

وما أهون أولئك الذين لايؤمنون بآداب السلوك فى الشارع ، فإذا سار أحدهم أمال خده تكبراً ؛ وإذا مشى اختال فى خطواته عجبا ، ولم يقصد فى مشيه ولم يغضض من صوته :

« إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا - ولاتصعر خدك للناس ولاتمش فى الأرض مرحا ، إن الله لايحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير »

وما أعجب أولئك الذين لم يحفلوا بآداب الأخوة الإنسانية وخيل إليهم أنهم فوق الناس وأسمى منهم ، وهان عليهم أن يسخروا من البعض ، ويعيبوه ويستخفوا به حتى فى مناداته ، فتراهم ينادونه بالألقاب التى تسىء إلى نفسه وإنسانيته :

« يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون .. »

والأخوة الإنسانية تفرض على الإنسان تحية أخيه عند لقائه كما تفرض على الآخر رد التحية بخير منها ، أو على الأقل بمثلها .. وذلك ضمان لبقاء الرابطة متينة قوية :

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ، إن الله كان على كل شئ حسيبا »

القاهرة — (الحديث صلة) محمد عبد الله السمان

مطبوعات المجمع العراقى

تاريخ العرب قبل الاسلام

أوسع كتاب فى تاريخ العرب قبل الإسلام

جمع من الكتابات العربية الجاهلية ومن النصوص الكلاسية والتوراة والتلمود

تأليف الدكتور

جواد على

طبع عام ١٩٥١